

الأصل الأوروبي لصلاح الدين

د. عبد المجيد الزعبي

الأصل الأوروبي لصلاح الدين نجده في رواية تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي والتي تحمل العناوين التالية : رحلة الكونت ده بوننتيه إلى ما وراء البحر أو : ابنة الكونت ده بوننتيه وأيضاً كما في مؤلف سيطري ده لاغيت : قصة أميرة بوننتيه⁽¹⁾.

نقول الرواية إن تاريخ هذه الأميرة التي يعود نسبها إلى إحدى أشهر الأسر النبيلة الفرنسية يشرح لنا الأصل الفرنجي لفتاح القدس الشهير.

كلود برينل - كما تقول سوزان ديبارك كيوك - يفترض أن هذه الرواية كانت قد كتبت لإهدائي إلى الكونتيس ماري ده بوننتيه والتي إليها كانت قد أهديت رواية البنسفة وكان الكاتب يتباهى بنسب صلاح الدين إلى أسرة الكونت ده بوننتيه⁽²⁾.

إن بطل هذه الرواية، الكونت ده بوننتيه وفي أثناء حكم المك فيليب الأول كان يمتلك أملاكاً كثيرة وكان ذا صيت في الكرم الذي كان يدفع أشجع فرسان المملكة الفرنسية إلى المجيء إلى قصره.

كان هذا الكونت قد تزوج من فتاة أنجبت له ابنة ذكية ثم توفيت، في ذلك الوقت الكونت ده سان بول الذي كان يشغل مركزاً مرموقاً في المملكة، لم يكن له أولاد، إلا أن أخته المتزوجة من حاكم دامار كان لها ولد اسمه تيبو وهذا الولد كان الوريث الوحيد للكونت.

عمل تيبوفي خدمة الكونت ده بوننتيه وتميز بصفاته الحسنة، ورغبة من الكونت ده بوننتيه بالاحتفاظ بمثل هذا الفارس الشجاع في خدمته عرض على تيبو اختيار إحدى مقاطعاته التي تسمح له بالعيش الكريم والمناسب إلا أن تيبو اعتبر أن موافقة الكونت ده بوننتيه على زواجه من ابنته ستكون أكبر مكافأة وشرف عظيم له. لم يُبدِ الكونت أي اعتراض على ذلك وبعد أن حصل على موافقة ابنته قبل باتخاذ تيبو صهرها له.

(1) Citri de la Guette, *Histoire de la conquête du royaume de Jérusalem sur les chrétiens par Saladin*, traduite d'un ancien manuscrit, Paris, Gervais Clouzier, 1679, P. 41.

(2) Paris (Gaston), «La légende de Saladin», *Journal des Savants*, 1893, P. 356.

بعد عدة سنوات من الزواج السعيد، لاحظ الزوجان أنه ليس باستطاعتهم إنجاب أولاد. وللحصول من الله على ما كانوا يتمنون، عزم تيبو على الذهاب إلى الحج لى سان جاك ده كومبوستيل. وبدون جدوى حاول إقناع زوجته التي كانت تصر على مرافقته بالعدول عن هذا السفر المضني للنساء. أخيرا زود الكونت ده بونتنيه الزوجين بعربة وبرجال وودعهم بموكب مهيب.

قبل وصولهم بيومين من المسير إلى سان جاك ده كومبوستيل كان على الحجاج العبور في غابة حيث كان يكمن فيها غالبا للصوص. وقبل الدخول في الغابة ترك تيبو موكبه يتقدمه، سالكا الطريق غير الصحيح، لم يدرك الزوجان الشبان خطأهم إلا عندما وجدوا أنفسهم أمام ثمانية لصوص، واجههم تيبو بشجاعة وقتل ثلاث منهم، لكنه هُزم من قبل الخمسة الباقين، اللصوص سلبوا ضحاياهم وقتلوا الزوج واغتصبوا زوجته أمام عينية. فأصبحت الزوجة مصدومة ومضطربة مما حدث ولم تجد حلا لطمس عارهما سوى القضاء على الانسان الوحيد الذي كان شاهدا على ذلك فأخذت السيف الذي كان بجانب زوجها وضربت به لم تقطع فيها سوى قيده. نهض تيبو مندهشا وانتزع السيف من يدي الزوجة وهو يقول لها بأن ضربتها كانت خائبة⁽³⁾.

تابع تيبو مع ذلك رحلته لكن دون اصطحاب زوجته التي وضعها في أحد الأديرة ليعود لأخذها وهو في طريق العودة.

بعد إتمام حجه اصطحب معه زوجته وسلك معها سلوكا كما لم يحدث شيء، عند وصولهم إلى بونتنيه قام الكونت باستقبالهم استقبالا حارا. وتيبو الذي لم يغير شيء في سلوكه مع زوجته كان لا يريد أن يقول أي شيء عن رحلته. لكن أمام إصرار عمه قبل تيبو أن يروي مغامرته. طلب الكونت ابنته وسألها عن الحقيقة. اعترفت البنت بصحة الرواية وقالت إن أسفها الوحيد هو أن ترى شاهدها مازال على قيد الحياة.

لكن الأب كان أقل تسامحا من صهره فقرر إنزال أشد العقوبات بابنته. وفي ذات يوم اصطحب الكونت ابنه وصهره وابنته في مركب وحملوا معهم برميلا مليئا بالقار وعندما وصلوا إلى عمق البحر أدخل البنت في البرميل وأحكم إغلاقه وقذف به إلى البحر.

انتشل البرميل من قبل تجار من منطقة الفلاندر الذين كانوا ذاهبين إلى بلاد السارازان (المسلمين) فانددهشوا مما وجدوه وقرروا أن يهدوا الفتاة إلى سلطان الميري⁽⁴⁾.

تعلق هذا السلطان بالمرأة الشابة تعلقا شديدا وعرض عليها أن تصبح ملكة إذا قبلت بتغيير دينها. الأميرة قبلت العرض وأصبحت أما لصبي بعد وقت وفي العام التالي أما لطفلة.

(3) Citri de la Guette, (O.C.), P. 50.

(4) Almerie est une ville en Espagne.

وبعد مضي عامين اعترف الكونت ده بونتييه بأنه كان ظالما تجاه ابنته لذلك قرر أن يكفر عن ذنبه بالحج وبالذهاب إلى الأرض المقدسة في سورية وبعد مضي عام من الزمن وهو في خدمة المعبد، أبحر الكونت الذي كان يرافقه ابنه وصهره من عكا قاصدا بلاده. وبعد عدة أيام من الإبحار دفعت الرياح مركبهم نحو أراض إسلامية تعود إلى سلطان الميري وكل من كان في المركب أسيّر واقتيد الكونت ده بونتييه ومعه صاحبيه إلى سجن الميري. وفي يوم عيد ميلاد السلطان كانوا يختارون أكبر السجناء سنا وأقلهم قدرة على العمل ليستخدمهم كأهداف لرماة النبال وهذا الاختيار وقع على الكونت. عند رؤية العجوز شعرت السلطانة باضطراب وأمرت بإحضاره في الحال وسألته عن بلاده وقال إنه فرنسي من بونتييه وعملت نفس الشيء مع زوجها الذي اقتيد إلى مكان مرمى السهام وحصلت من السلطان على عفو عن العجوز وعن صاحبيه حتى تنتفع كما تقول من خدمتهم.

وأخيرا نجحت السلطانة بحمل السجناء على كشف حقيقة قصتهم. صرح الكونت بأنه أسف كثيرا على ضياع ابنته واعترف بأنه كان في تلك اللحظة تحت تأثير الغضب. زوجها السابق وأخوها لم يكونا أقل أسف وحزن على ذلك.

عندما تأكدت السلطانة من صحة أقوالهم وعواطفهم، عرفتهم على حقيقة شخصيتها فهي : ابنة الأول وزوجة الثاني وشقيقة الثالث. كان التلاقي مثيرا أو مؤثرا. لكن الأربعة كلهم كانوا مجبرين لكتب تأثرهم حتى لا يشك أي شخص ممن حولهم بأي شيء كان.

بناء على طلب السلطانة دخل تيبو في خدمة سيد الميري، وبفضل مزاياه وشجاعته لم يمر وقت طويل حتى نال ثقته، وعرض السلطان عليه أن يستلم المسؤولية الأولى في دولته إذا كان يرغب في تغيير دينه. لكن تيبو رفض وحصل فقط على حرية التنقل.

بعد فترة، تظاهرت السلطانة بأنها حامل وأمرت أن تُحمل في البحر إلى قصر مبني على الشاطئ واصطحبت معها ابنها وأهلها وتركت ابنتها بسبب صغر سنها. عندما تقدم المركب في البحر أجبر السجناء الثلاثة العبيد على التوجه مباشرة إلى برانديزي (مدينة في إيطاليا).

وعند وصول الأميرة إلى المدينة أعتقت المسيحيين الذين كانوا على المركب ووضعت مكانهم مسلمين وأعادتهم إلى السلطان. وكتبت له بأنها ستحتفظ له بالمحبة والاحترام والعرفان بالجميل طوال حياتها من أجل كل ما أحاطها به من رعاية. وسألته العفو لأنها تركته وأعلمته أن الارتباط الذي كان يربطها بزوجها الأول لا يسمح لها بالبقاء معه مع الاحتفاظ بكرامتها إضافة إلى اختلاف الديانة لأنها كانت قد احتفظت دائما بديانتها التي هي الأصح حسب اعتقادها.

مرت الأميرة بعد ذلك بروما والبابا أعادها إلى الدين المسيحي وجدد لها زواجها من تيبو. بعد فترة قصيرة من عودتهم إلى البوننتيه، مات الكونت تاركا وراءه ابنه ووريثه الذي مات هو الآخر دون أن يتزوج وبذلك خلفه تيبو وزوجته.

فيما بعد، ابن السلطان الذي اصطحبته معها الكونتس إلى بوننتيه تزوج من فتاة غنية من النوماندي وخلفه كانوا سادة منطقة البريو.

تألم السلطان ألما شديدا لفراق الأميرة ومنح عطفه كله إلى الطفلة التي تركتها له. رباها أحسن تربية وأصبحت أميرة جميلة واجتذب جمالها مشاهير السارازان (المسلمين) إلى بلاط السلطان. أمير يدعى ماليكان من بغداد تزوجها وكان له شرف الفوز على منافسيه بتفضيلها له وكان له منها بنت ومن هذه الأميرة ولد صلاح الدين.

قصة مغامرة بنت الكونت ده بوننتيه نجدها في قصيدة من القرن الرابع عشر وتحمل عنوان بودران سبورغ التي أضاف مؤلفها إليها بعض التعديلات.

في هذه القصيدة بنت الكونت ده بوننتيه هي خطيبة أسمرة، أخ لبودران ده سبورغ، أبوه إرنوده بوقية ملك نميغ، غدر به من قيل أمين سره جوفروا وسُلم إلى الأمير المسلم (السارازان) روج ليون ملك ابيلان. شقيقة هذا الملك أليور نجحت بحمل السجين على التحدث عن قصته، إرغو وصل به الحديث إلى الكلام عن ابنه أسمرة وعرض عليها أن يكون زوجها لها إذا أصبح ذلك ممكنا يوما ما. الفتاة مسيحية بالسر قبلت العرض بحرارة (5).

في أثناء ذلك، كان جوفروا في نميغ يتظاهر بالحزن الشديد، بعد أن أعلن وفاة الملك الطيب وبما أنه كان يوزع الذهب على الناس بسخاء، فذلك نُصب ملكا وطلب يد الملكة روز، زوجة الملك السابق إرنو.

في ابيلان الأمير روج ليون كان قد اتخذ سجينه إرنو صديقا له وكلفه بالذهاب إلى بلاط السلطان بمرافقة المال الذي يترتب عليه دفعه إلى سيده، وهو في طريقه إلى بلاط السلطان صادف ملك نميغ السابق حيوانا مخيفا وهذا الحيوان قتل الملك وأكله (6).

أليو، التي كانت تفكر بالذهاب إلى أسمرة البارون الذي كانت تحبه قامت برسم خيانة جوفروا على قطعة كبيرة من القماش وأيضا المقابلة التي تمت بينها وبين إرنو ومات وموت هذا الملك بعدها. سافرت أليو عن طريق البحر ومعها كنز ثمين.

بعد سفر شاق وصلت أليو إلى نميغ في اليوم الذي سيتزوج فيه أسمرة من بنت الكونت ده بوننتيه. عرضت لوحتها على الناس ونجحت بإثارة مشاعر أسمرة ونجحت أيضا بمقابلة الملكة روز وأولادها وروت لهم قصة ضيافة جوفروا.

(5) Labande (Edmond-René), *Etude sur Baudouin de Seborc*, (Chanson de geste-Légende poetique de Baudouin II de Bourg roi de Jérusalem), Paris, Droz, 1940, P. 24.

(6) Ibid, P. 25.

أسمرة الذي وقع في حب الرواية، كان يريد معاقبة الخائن على الفور. فاجأ جوفروا لكنه لم ينجح إلا بقطع أذنه.

الأولاد الثلاثة لروز : أسمرة، غلوريان والكساندر، محاصرين من قبل رجال جوفروا، نجحوا بالهروب من نيمغ. أما بالنسبة لروز فقررت أن تلتجئ إلى بولونيا ونجحت في الابحار في مركب مع الينور وسيدة البونتييه. ودفعت العواصف مركبهن إلى القاهرة (بابلون)⁽⁷⁾.

سلطان هذه المدينة، صلاح الدين العجوز الذي اقتيدت إليه المسافرين أعجب بجمال وكمال سيدة البونتييه التي أصبحت سارازين (مسلمة) كي تتزوجه. صلاح الدين العجوز أرسل في طلب روح ليون لكي يأتي لأخذ أخته الينور وعاد هذا الأخير إلى أبيان وبصحبه والدة أسمرة.

فيما بعد، صادفت سيدة البونتييه في بابلون (القاهرة) بودران ده سبورغ أخ أسمرة الذي لحق بالينور وأعلمته أنه موجود في السجن في ابيان.

بالنسبة لبودران وجه بعض اللوم للسيدة المرتدة والتي كانت على استعداد للتوبة. وقالت « إذا جاء أخي جان من وراء البحر ليأخذني من هنا سأعود إلى ديني السابق »⁽⁸⁾.

عندما وصل الكونت جان ده بونتييه إلى الأرض المقدسة (سورية) كانت المعركة بين المسيحيين والمسلمين حامية الوطيس، وبدون تردد دخل جان المعركة مع رجاله لمساعدة المسيحيين. وفي نهاية المعركة، جان الذي لم يشك مطلقاً أنه كان يحارب ابن أخته، وقع في الأسر.

في النص الوارد في مؤلف ده لاغوغ، صلاح الدين عندما علم اسم سجينه سأل إن كان له أخت، فأجاب إنه كان له أختين واحدة منهن في بونتييه والأخرى اتهمت بأنها أرادت دس السم لملك فرنسا فأبعدت من البلاط الملكي وسافرت في البحر.

عندما سمع صلاح الدين ذلك عرف بأنها كانت أمه⁽⁹⁾.

بعد كل ما تقدم فإنه من الصعب أن نوافق غاستون باريس على قوله : « إن رواية ابنة الكونت ده بونتييه هي مهمة بذاتها، لكن ليس لها إلا علاقة بعيدة مع صلاح الدين ».

(7) Labande E. — R., (O.C.) P. 26.

(8) Labande E. — R., (O.C.) P. 28.

(9) Larry S. Crist, *Le Deuxième Cycle de la Croisade*, (Deux études sur sou-développement) Genève, Droz, 1972, P. 64.

فنحن بالعكس، نعتقد أن الرواية كتبت بهدف شرح قصة الأصل الافرنجي لفتح القدس. وعلى كل حال هذا هو المعنى الذي تحمله الجملة الأخيرة والتي يختتم بها سيتري دي لاغيت ترجمته لقصة أميرة البوننتيه. في مؤلفه تاريخ أبيقيل والكونتيه ده بوننتيه، السيد ليواندر يطابق بين شخصين أميرة بوننتيه والشخصية التاريخية لبنت جان الثاني ده بوننتيه زوجة توماده سان فاليري⁽¹⁰⁾. هذا التطابق ترك الانطباع بأن ليس كل شيء خيالي في مغامرات بطلتنا. وأشعرنا في ذلك إلى سادة بوننتيه الذين شاركوا في الحملات الصليبية فمنهم غي الثاني، متوفى في ايفيز (تركيا) في عام 1147 وجان ده بوننتيه متوفى في عكا عام 1191⁽¹¹⁾.

في القرن الثامن عشر، الموضوع الذي تصنف فيه رواية بنت الكونت ده بوننتيه ظهر من جديد وأصبح موضة العصر لكثير من المؤلفين حيث أنهم قد استوحوا جُل أفكارهم من هذه الرواية.

لكن إذا كانت النظرة هكذا إلى قصة الكونتيس ده بوننتيه في أوروبا فمن المهم معرفة نظرة الناس إليها من الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط.

كتب التاريخ حفظت لنا اسم خال صلاح الدين الذي كان يدعى شهاب الدين محمود الحارمي.

هذا الشخص كما يقول ابن الأثير، كان أحد الأمراء الذين كانوا يطمحون بخلافة شيركو عم صلاح الدين على رأس الحكومة المصرية في عام 1169 ويذكره المؤرخ هنا بسبب الدور الذي لعبه لصالح ابن أخته صلاح الدين.

مؤرخو ذلك العصر الذين كانوا قد حاولوا أن يعملوا لوحة عليها سلالة صلاح الدين اقتصروا في بحثهم على ذكر سلالة الأب دون ذكر سلالة الأم.

لكن إذا استطعنا القول أن محمود ليس هو جان وأن حارم ليس لها علاقة مع البوننتيه، فبالمقابل لا نستطيع إثبات أو نفي كل الأقاويل التي تعطي محمود هذا أم من أصل إفرنجي لأنه كما نجد في كتب التاريخ كثيرا من الأمراء المسلمين كانت أمهاتهم من أصل إفرنجي ولم لا يكون صلاح الدين من أم إفرنجية...؟؟

في ذلك العصر، الزواج كان المخرج الوحيد لكل السبايا السجينات في أي طرف وجدن، وقدر بنت الكونت ده بوننتيه يمكن أن يكون نفسه إلى بنت أمير مسلم. فمثلا، وجود النور،

(10) Louandre (François-César), *Histoire d'Abbeville et du comité de Ponthieu jusqu'en 1789*, Marseille, Laffitte Reprints, 1976, PP. 140-141.

(11) Aboul' Feda, *Résumé de l'histoire des croisades tiré des «Annales»*, in R.H.C., H. Or., TI, Paris, Imp. Nationale, 1872, PP. 126-127.

ابنة أخ صلاح الدين العجوز في قصيدة بودوان ده سبورغ وزواجها من أسمرة ابن عم غودفرواده بويون، يعبر عن إرادة المؤلف في إظهار التناظر بالنسبة للطرفين المسلم والمسيحي.

السنوات الأخيرة من العهد الأيوبي، قبل أن يبدأ عهد المماليك في عام 1250 شهدت صعود سيدة إلى السلطة لقبت بـ (شجرة الدر) وكانت جارية قبل أن تتزوج الملك الصالح أيوب وهو الملك الثاني قبل الأخير في العهد الأيوبي في مصر وكانت أمه جارية كذلك.

في أثناء الحملة الصليبية الثالثة كانوا يفكرون بعمل زواج سياسي من أجل حلحلة الموقف، هذا الزواج شغل ووقت طويل موضوع مفاوضات السلام بين صلاح الدين وريشارد قلب الأسد. هذا الأخير في محاولاته العديدة لاستعادة القدس عرض على صلاح الدين زواج أخته التي كانت ملكة صقليليا من أخيه العادل الذي كان يدعوه أخي بشرط أن يسكن الزوجان في القدس ويقومان بإدارة الأراضي التابعة للفرنجة والأراضي التي سيتخلّى عنها صلاح الدين لأخيه.

هذا العرض كان جدياً وأتيحت فرصة كبيرة من أجل تحقيقه ذلك لأن خليفة صلاح الدين، العادل، كان يعبر هذا الموضوع اهتماماً كبيراً وكان عنده أمل كبير بتحقيقه لذلك طلب إلى بهاء الدين سكرتير صلاح الدين أن يتوسط له عند أخيه ليسهل زواجه من شقيقة ملك انكلترا (12).

فإذا كان الواقع من التاريخ هو كذلك، فلماذا إذا نلوم الراوي حين يفكر ويتخيل التاريخ بطريقة مختلفة عما عهدناه وجعل الواقع الذي غالباً ما كان قاسياً ومراً أكثر شاعرية.

وفي نهاية المطاف نستطيع أن نوجز أن الرواية التي تقول إن الأصل الفرنسي لصلاح الدين من أمه في رواية بنت الكونت ده بونتيه قد لا تكون قصة خيالية بحتة. وكاتب القرن الثالث عشر لم يكن بحاجة لأن يقتبس من روايات قديمة أفكاراً يستفيد منها في رسم شخصياته ومغامراتهم. فالواقع في ذلك العصر والتاريخ يقدمان لنا الكثير.

(12) Maalouf (Amin), *Les Croisades vues par les Arabes*, Paris, J. — C. Lattès, 1983, P. 230.